

توظيف الثورة في الرواية الجزائرية، رائحة الكلب للروائي الجزائري جيلالي خلاص نموذجاً أ.د. مازاري شارف، جامعة د. مولاي الطاهر بسعيدة، الجزائر.

يتفق على أن معظم النصوص الروائية الجزائرية كانت موضوعاتها تدور حول الثورة التحريرية، ولعل ذلك يعود إلى خصيصة الاستقطاب التي مارسها الفعل الثوري بمرجعية نضالية إعلانية غاية في الظهور والإعجاب ولذلك يمكن القول إن أكثر مما كتب في القصة والرواية كانت أغلب موضوعاته تدور حول ما الشيء الذي جعل هذه الثورة تمجدها الأقلام وبيار كها الدين وتركيبها الشريعة؟ لقد حازت الثورة نسبة لا تقل عن 90 % من الموضوعات التي تناولتها الأعمال الروائية و القصصية على حد سواء.

وقد يكون هذا لافتاً في فترة السبعينيات بحيث اغتدت أرضاً خصبة لتجسيد مظاهر الفعل الثوري عبر الأجناس الأدبية المختلفة التي طالت هذه الظاهرة وخاصة جنس الرواية. ولذلك تكون الرواية الثورية محكومة بفترة من حيث الزمن ومحكومة بكتابة فنية من حيث الإبداع ولذلك أيضاً بدأت تأخذ شكلها الفني شيئاً فشيئاً بعد أن مهدت لها أعمال كثيرة قبل الاستقلال كما هو جلي عند المشتغلين في حقل النقد الروائي.

ويكون الفضل لهذه الثورة من وجهة أخرى أنها أسالت كثيراً من الحبر، وفتحت فضاء واسعاً من الكتابة الإبداعية فقد ظلت { تؤثر في الكتاب الجزائريين من الناشئة الذين عالجوا الكتابة في العهد المتأخر، بل حتى في من واكبوها وعاشوها فظلت تختلج في أختلهم ورسيسها يراود عواطفهم } (1)

ولا شك أن الفعل الثوري قد مارس ثقله على الأدباء فانعكس على إنتاجهم بصورة مباشرة الأمر الذي جعلها [الثورة] تتخذ أشكالاً مختلفة كالتمثيل المباشر لها بتقريره فجسدة كأن { يصف ما فيها من بطولات وتضحية من جانب الثوار ومن جبن ووحشية من جانب الأعداء } (2) وقلمنا نجد كتاباً بارعين قد استخدموها [الثورة] بفنية عالية، حيث زاوجوا بين التوظيف الدلالي الحسي للثورة والتوظيف الجمالي لها فأحدثوا توازناً فنياً يقرب المعاني إلى المتلقي ويسوقه نحو مزيد من الغور إلى أعماق النص هذا على مستوى الإبداع وإنتاج المعنى.

أما من حيث الشاهد النقدي أو الدراسة النقدية فقد تسلطت على نصوص كثيرة تظاهرت كلها على معرفة صورة الثورة وكيفية توظيفها، وقد تباينت هذه الدراسات في الطروحات والآراء النقدية ضعفاً وقوة من حيث القيم الفنية والجمالية التي صاحبته هذا الدرس فضلاً عن البنية السطحية والعميقة التي ميزته من لدن وجوه بسطت نفوذها على ساحة النقد في السبعينيات. إن الأعمال التي طالها الدرس النقدي في سياق الكشف عن الفعل الثوري كثيرة منها أعمال

بوجدرية ومحمد مفلح، عبد الحميد بن هدوقة، إسماعيل غموقات، الطاهر وطار، محمد عرعار، مرزاق بقطاش، وغيرهم.

على أن ذلك مس إنتاج أدباء معروفين، ولم يكن حظ جيلالي خلاص من هذه الدراسات كبيراً، ولذلك فضلنا توجيه عناية الدرس النقدي إلى إنتاجه الروائي وبخاصة ما له صلة بالثورة وكيفية التعامل معها روائياً.

إن الرواية المنتخبة للكشف عن تأثير الثورة في عمله هي رواية «رائحة الكلب» الصادرة عن المؤسسة الوطنية للكتاب عام 1988.

تقع في مائة واثنين وخمسين صفحة، غلافها الخارجي ذو طبعة ناعمة ملساء نصفه الأسفل مسودة صورته تتجسد عبرها خيول كثيفة مستنفرة، يتطاير تحتها تقع غبار كثيف ترتقبها عينان ساحرتان جميلتان يعلوهما شعر بني حالم. وكأن الصورة في عمومها ضرب من السحر الوهاج أو جنس من التصوير الأخاذ. عينان كأنهما كوكب دري. ولعلهما يرمزان إلى الجزائر الجميلة التي يحلم بها كل ثور قدم تضحية ما.

تتقاسم هذه الرواية عناوين فرعية تصل إلى ثلاثة عشر مبعثرة عبر جسد الرواية على هذا النحو: قبل، للحظة، لبرهة، ثانية، الساعة، الآن، عندما، يوم، منذ، قبيل، الليلة، حين، وقت. وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن هذه العناوين كلها عبارة عن ظروف زمان من الوجهة النحوية، على أن ذلك لم يكن إرساله اعتباطياً أو على سبيل المصادفة أو العفوية، وإنما كان ذلك بوعي من الكاتب. إن المتتبع لمضامين القصص المعروضة ضمن العناوين المذكورة يلقي أزوف حدوث الفعل الثوري من لدن الثوار أو الأبطال المشاركين في الحركة الثورية الجزائرية، ولذلك وأنت تقرأ مثلاً القصة المنضوية تحت عنوان «قبل» والتي سخر لها أربع أوراق وهي فاتحة هذه الرواية تلقي ظروف الزمن تردد ضمن جمل هذه القصة على النحو الذي تباشر به دروس اللغة في كتب النحو المعروفة، حيث ألفينا أكثر من ثلاثين ظرف زمان مستخدمة في حالات إعرابية مختلفة، وهو الشيء نفسه الذي ينسحب على باقي القصص. وهي تقنية وجدت في رواية «رائحة الكلب» مستخدمة من حيث يدري الكاتب أو لا يدري.

ملخص الرواية: الرواية عناوين جزئية، كل عنوان يستقل بمعنى خاص وبشخصيات خاصة وأحداث خاصة أيضاً. لكن من حيث توظيف الثورة فيها نجد ذلك وارداً بصور مختلفة أيضاً. وكذلك ليس في مقدورنا اجتثاث ملخص شامل يعطي تلخيصاً عاماً لكامل الرواية، وإنما يقع التلخيص على كل عنوان من عناوينها الثلاثة عشر، ويتحدد توظيف الثورة من خلالها. ولعله السبب المانع لتناول كل العناوين منفردة. نكتفي بعنوانين:

الأول: قبل. يصور هذا العنوان الفرعي الأول الثورة في ثنايا الأحداث التي كان يسوقها الراوي مستخدماً لغة جميلة ترتكز على ألفاظ ومفردات غاية في البلاغة والبيان. فلغة الكاتب لغة شاعرية عالية } ودم حسبية القاني الذي سال تحت الأرض إثر تفجير تلك العبوة الغاشمة، مختلطاً بالتراب، شاقاً

لنفسه ساقية رقيقة، لكانه يفر [الدم] بجلده من أولئك الذين سيأتون بعد حين فينبشون الأرض بالأتهم، وفوق رؤوسهم فرقة من المظليين تحرسهم، إذ لم يكونوا يؤمنون بأن ذلك الوجه الصبوح الذي يبعث الرهبة فيهم ببهائه، قد انطفأ إلى الأبد، لما عودهم [الوجه] من مفاجئآت، غالباً ما كانت تطير ببرازهم شظايا رجسة على أسفلت الشوارع وبلاط الأرصفة. { (3)

هذا المقطع فيه تصوير لحالة الرعب التي كان يعيشها الجنود الفرنسيون إثر محاصرة الثوار لهم من كل مكان، ويذكر هذا المقطع الرعب الذي كانت تحدثه المرأة البطلة حسيبة في نفوسهم مرات ومرات. راكس: الكلب المشارك في حبكة هذا النص { إذ كان ينام عند قاعدة سريـره فارتطمت رأسه بأحد قوائم السرير، الشيء الذي ألمه مثيراً عواءه المتواصل. { (4)

سي عمر: صاحب العمارة { يبدو أنه هرب، تاركا تلك الأشياء التي كان يقول عنها مكرراً مؤكداً، أن لا شيء سواها يهمه في الحياة: العقارات، المال والنساء ولا شيء غيرها في الحياة، [ماتت بتناه الوحيـدتان في حادث سيارة في نفس اليوم، فطلق أمهما فوراً حتى لا ترثه. { (5) طيو: الكلب { الذي قتله المظلي الفرنسي بعشر رصاصات. { (6)

صوبت هذه الرواية الثورة الجزائرية التحريرية المجيدة عاكسة بذلك كفاح شعب مرير يحلم بالحرية والاستقلال ويناضل ويكافح لتحقيق ذلك، حيث تتجسد هذه الأحلام في أعمال روائية مختلفة كهذه الرواية «رائحة الكلب» التي { تمتد إلى أمال هذا الشعب بتصوير كفاحه من أجل كرامته ونيل حريته { (7)، ولذلك فإن المتلقي في ضوء نص «رائحة الكلب» المعنون بـ: قبل. يجد نفسه أمام بطل راو مثقف وكاتب، يسكن عمارة، يمارس فن الكتابة الإبداعية داخل الرواية، كاتب عمومي خارج النص الروائي. على حين تجري هذه الأحداث في مدينة الجزائر تاريخ حسيبة بن بوعلي. غير أن ما يجري فيها هو جله عبارة عن أحلام حقيقية ينام داخلها نوماً عميقاً فتأتيه متتالية الأحداث فيسردّها. وبين الحلم وحقيقة ما يجري من سماع دوي هز المدينة، وعواء كلبه راكس الذي كان يتمسح عند ركبتيه، وتداعي الوعي الذي يربطه بطفولته { ويروح يبكي فتحتضنه أمه [ابنها الذكر الوحيد على قيد الحياة] وتضغطه على صدرها وتروح تشهق ماسحة دموع عينيه الساخنة { (8) وهكذا ظل هذا النص الروائي بحبكتة الجميلة وسرده الأخاذ ومونولوجه المتسارع عبر جسد الرواية ينمو باطراد يشكل في نهايته { نغماً عذباً وأنشودة في الأفئدة المضطربة عزماً وإساراً في مواجهة العدو. { (9)

هذا النغم وهذه الأنشودة ما هي إلا حركة الثورة الوطنية التي لم تتوقف في كامل ربوع الوطن المفقدي.

الثاني: اليلة: هو أحد العناوين المشكلة لكامل الرواية. فيه توظيف عاد للثورة، يلجأ في صياغته إلى التداخل بين الزمن الحاضر وزمن الحكي. الرواية تبدأ هكذا: { شرعت في تحبير تلك الرواية التي طالما حدثكم عنها. { (10)

ثم وبعد تطواف يعلن تأثره بالثورة الجزائرية، حيث عاش لحظاتها في طفولته ويذكر مواقف منها. لكن لا يريد لها أن تختفي وتمر كأنها حكاية عابر وكفى.

{ مذ وعيت وأن أنتظر هذه الليلة، أن أكتب رواية وهل تلك الرواية إلا حياتي؟ لقد كتبت هذه عشر سنوات خلت تلك القصة القصيرة التي عبرت فيها عما أريد أن أكتب له: «الثورة» الثورة الآتية. قصة «ثورة» أي أن الكتابة في حد ذاتها كما أراها لا يمكن أن تكون إلا ثورة وإلا فلن تكون }⁽¹¹⁾ هي ثورة مزدوجة ثورة حقيقية وقعت وعاش بعض لحظاتها، لكنه كان يعاني عسرا حين ينوي تحويلها إلى رواية هذا العسر لازمه ولم يفارقه، أرقه، أتعبه، ظل يحاول التخلص من هذا الكابوس كي يكتب قصة ثورة لكنه لم يفعل، فالمعاناة التي يكابدها ما هي إلا صورة أخرى لثورة أخرى يعيشها الكاتب. ثم خط هذه المعاناة في شكل مقدمة لروايته الثورية في صفحات معدودة تتبعناها وحاولنا اجتثاث منها ما له صلة بالثورة على أن معظمها كان جدلا قائما بينه وبين ذاكرته وبين قلمه. فلم يحدث تجاوب بينهما من أجل تحبير هذه الرواية المزعومة. وظل في مد وزجر يصور هذا الصراع الذي جثم على قدراته العقلية وإراداته فكله فلم يقو على ترجمة ما يريد كتابته عدا شذى من بقايا ذاكرته { كان يومذاك صبيا ولكنه عايش بطش العدو وطغيان الاستعمار في بلاده الجزائر. وأسهم. أجل أسهم بمجهوده - على ضآلته وضعفه - في الثورة. كان صبيا ولكنه يذكر جيدا تلك العينين الزرقاوين القاسيتين وذلك «الركل» الذي رفع جسمه الضئيل ليقذف به فوق «السدر» الشائك. لقد صرخ ساعته في وجه الجندي الفرنسي وقد سأله هذا الأخير عن الفلاقة: «لا... لم أر شيئا» ... وكانوا قد تعشوا واستراحوا في بيتهم الباردة. ربت أحدهم على كتفه وقال: تركت طفلا في مثل سنه.

وعقب عليه زميله: الجزائر اليوم في مثل سنه أيضا. لابد أن نربيعها ونُدفع عنها الخطر حتى تستعيد قوتها. لم يع يومها هذه الكلمات ولكنه أدرك الآن لماذا بكى وهو يعتقد السدر الشائك مرغما. لقد كان بكاءه مساهمة في الثورة. سالت دموعه لتسقي زهور النصر. قصته الأولى كانت موضوعية. عندها انتهت تلاها نشيد وطني محفز. كأنه تعبير حقيقي عن جدارتها. أجل كانت رائعة لأنها تحفة أدبية فريدة ولكن لأنها عبرت عن الثورة وأسهمت فيها... }⁽¹²⁾ ثم يعاوده تتأقّل آخر في شكل تساؤلات يطرحها على نفسه، هو الكاتب المزهو بالكتابة وتصوير القصص الغرامية بعيدا عن واقعة الحقيقة: الثورة والشهداء والدماء والدفاع عن الوطن. لم تعجبه الكتابة إلى هذا المضمار لابد أن يثور أن يشارك في الثورة، أن يجسدها في كتابة في رواية هي قصة ثورة أنشأها الكاتب بعد لأي ولأي.

رائحة الكلب كما هي في الذاكرة الشعبية بعد لا متناه يرمز لكل شيء خبيث. نتانتها تظل موجودة لا يستطيع مقاومتها أحد، رائحة الكلب في العادة ترتبط بالحركة وخونة الثورة، فروانحهم كالكلاب. وإلا يكون الكلب رمزا للوفاء لكن في غير هذا التوظيف. أو هو المستعمر الغاشم الذي يبقى أثره قائما من بعد الاستقلال وأثر رائحته تظل مستمرة. ويختتم هذا العنوان بهذا المشهد:

{ إذن، هذه عشر سنوات خلت على قراءة تكمل لهذه القصة التي انتهت بانتهاء الليل، تمامًا مثل اليوم، حيث ما أن لاحظت تبشير الفجر الأولى حتى كانت الفكرة قد توضحته في عقل الكاتب. هذا الفجر اتضحت فكرتي، بل صممت نهائيا على تحقيق حلمي، أملككم جميعا، البول على «شلاغم» شيخ البلدية، التبرز فوق كانون مساعده الأول سي عمر والتحليق باتجاه الشمس لفقاً عينيه الكاوية، فاسقاط المطر الذي سيجرفه بسيوله جثث الشنابيب وشيخهم منظف المدينة من رجسهم إلى الأبد. } (13)

هو الأمل الذي ظل يراوده ولم يقو على تحويله إلى فعل حتى حانت اللحظة التي تخلص فيها ما كان يكبله، هو أمل كل جزائري يحلم بالاستقلال، ويحلم باليوم الذي تنتصر فيه الثورة فتجرف كل شيء، كالسيل العارم ويتحقق معها النص_____تر.

الهوامش :

- (1) - عبد المالك مرتاض: القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1990. ص: 41.
- (2) - عبد القادر القط: في الأدب العربي الحديث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2001، ص: 291.
- (3) - عبد المالك مرتاض: القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1990. ص: 41.
- (4) - عبد القادر القط: في الأدب العربي الحديث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص: 291.
- (5) - الرواية، ص: 18، 17.
- (6) - الرواية، ص: 11.
- (7) - الرواية، ص: 15، 14.
- (8) - الرواية، ص: 12.
- (9) - محمد مصاييف: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 02، 1984، ص: 352.
- (10) - الرواية، ص: 12.
- (11) - عمر بن قينة: دراسات في القصة الجزائرية [القصيرة والطويلة] المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص: 22.
- (12) - الرواية، ص: 199.
- (13) - الرواية، ص: 120.